﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم: 52 - 53]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الإمداد على قَدْر الاستعداد

في هذه الآية تكميلٌ لمناقب موسى عليه السلام، بأشْهرِ ما اختصّه اللّهُ به مِن عطايا الإمداد والاستعداد، فجعلَه موصولًا به بمَدَدِ التّكليم كفاحًا، وقوّى استعدادَه على مواجهة الطّاغيَة فرعون بموهبةِ هارون أخيه عليه السلام عَضُدًا له.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ﴾: أَصْلُ النِّداءِ مِنَ النَّدَى، أي: الرُّطوبة، يُقالُ: صَوْتٌ نَديٌّ رَفيعٌ، واستعارةُ النِّداء للصَّوْت مِن حيثُ إنّ مَنْ تكْثُرُ رطوبةُ فمِه حَسُنَ كلامُه؛ ولهذا يوصَفُ الفَصيحُ بكَثرةِ الرّيق[1]، والنِّداءُ: جَهْرُ الصَّوْتِ لإسْماعِ البَعيد[2]، وقد يُقالُ ذَلِكَ للصَّوْتِ المُجرَّدِ، وإيَّاهُ قَصَدَ بقوله: ﴿إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: 171]، ويُقالُ للمُرَكَّبِ الَّذي يُفْهَمُ مِنْهُ المَعنى ذَلكَ، قالَ تَعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ [الشّعراء: 10][3]، والمَقْصودُ بالنِّداءِ في الآية: الكَلامُ الدَّالُّ على طَلَبِ الإقْبالِ، وهو كَلامٌ موجَّهٌ مِنْ جانبِ اللّه تَعالَى إلى موسى عليه السلام[4].

2) ﴿جَانِبِ﴾: أصلُ الجَنْبِ: الجارِحَةُ، ثمَّ استُعيرَ للنَّاحيةِ الَّتي تليها[5]، والجانِبُ: شِقُّ الإنْسانِ وغَيْرِه، تَقولُ: قعَدْتُ إلَى جَنْبِ فُلانٍ وإلَى جانبِه، بِمَعْنًى، والجَمعُ جُنوبٌ وجَوانِبُ وجَنائبُ، الأَخيرة

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (ندا، ندي).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 127.
(3) الرّاغب، المفردات: (ندا)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 5/ 32.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 127 - 128.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جنب).

نادِرَةٌ، والجَنْبُ مِنْ كُلِّ شيءٍ: ناحيته[1]، ويأتي الجَنْبُ بمعنى القُرْبِ، ومنه قولهم: وفي جَنْبِ اللّه، أي: في قُرْبِه وجِوارِه[2]، والمقصودُ بالجانب في الآية: النّاحيةُ السُّفْلى[3].

3) ﴿ٱلطُّورِ﴾: (طور) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على مَعْنًى واحِدٍ، وهو الِامتِدادُ في شَيْءٍ مِنْ مَكانٍ أَوْ زَمانٍ، مِنْ ذلكَ طَوارُ الدّارِ، وهو الَّذي يَمتَدُّ مَعَها مِنْ فِنائِها؛ ولذَلِكَ يُقالُ: عَدا طَوْرَهُ، أَيْ: جاوَزَ الحَدَّ الَّذي هو لَهُ مِنْ دارِه، ثُمَّ اسْتُعيرَ ذَلِكَ في كُلِّ شَيْءٍ يُتَعَدَّى[4]، والطّورُ في كَلامِ العَرَبِ الجَبَلُ[5]، فيَجوزُ أَنْ يَكونَ اسْمًا علمًا مَوْضوعًا، ويَجوزُ أَنْ يَكونَ سُمّي بِذَلِكَ لِما فيه مِنِ امتِدادٍ طولًا وعَرْضًا[6]، والمُرادُ بالطّورِ في الآية: الجَبَلُ الواقِعُ بَيْنَ بِلادِ الشّامِ ومِصْرَ، ويُقالُ لَهُ: طورُ سَيْناءَ[7].

4) ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾: أصلُ اليَمينِ: الجارِحَةُ، وضدّه اليَسار[8]، واليَمنةُ: خِلافُ اليَسْرة، ويُقالُ: قَعَدَ فُلانٌ يَمنَةً، والأَيْمَنُ والمَيْمَنَة: خِلافُ الأَيْسَر والمَيْسَرة[9]، ونَظَرَ أَيْمَنَ مِنْهُ، أي: عَن يَمينِه[10]، فالمقصودُ بالأَيْمَنِ في الآية: جِهَةُ اليَمين، والمُرادُ بوصف جانب الطّور به؛ لِأَنَّه الَّذي على يَمينِ مُسْتَقْبِلِ مَشْرِقِ الشَّمسِ، وهي الجِهَةُ الَّتي يَضبِطُ بِها البَشَرُ النَّواحيَ[11]، وقيل: المراد بـ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ هنا: ما عن يمين موسى عليه السلام من الطّور؛ لأنّ النّداء جاءه من قِبَل يمينه.

5) ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ﴾: (قرب) أَصْلٌ يَدُلُّ على خِلافِ البُعْدِ[12]، يُقالُ: قَرُبْتُ منه أَقْرُبُ، وقَرَّبْتُهُ أُقَرِّبُهُ قُرْبًا وقُرْبانًا، القُرْبُ في المَكان، والقُرْبَةُ في الرُّتْبَةِ، والقُرْبَى والقَرابَةُ في الرَّحِمِ[13]،

(1) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (جنب).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (جنب).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 128.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طور).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (طور).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طور).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 128.
(8) الرّاغب، المفردات: (يمن).
(9) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (يمن).
(10) الزّبيديّ، تاج العروس: (يمن).
(11) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 128.
(12) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرب).
(13) الرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (قرب).

وقرَّب الشَّيْء قُربًا وقُربانًا: أتاهُ فقَرُب منْهُ[1]، وأَقرَبوا إبلَهُم: أَدْنَوها مِنَ الماءِ[2]، والتَّقَرُّبُ: التَّحدّي بما يقتضي حُظْوة[3]، وحقيقةُ التَّقْريبِ في الآية: الجَعْلُ بِمَكانِ القُرْبِ، وهو الدُّنوُّ، والمراد هُنا: القُرْبُ المَجازيُّ، وهو الوحْيُ[4].

6) ﴿نَجِيًّا﴾: (نجو) أَصْلٌ يَدُلُّ على سَتْرٍ وإِخْفاءٍ، مِن ذلك: النَّجْوُ والنَّجْوى: السِّرُّ بَيْنَ اثْنَيْنِ[5]، والنَّجيُّ: المُتناجونَ، يُقالُ: نَجَوْتُهُ نَجْوًا، إذا سارَرْتُهُ، وكذلك ناجَيْتُهُ، وانْتَجى القومُ وتَناجَوْا، أي: تسارّوا، وانْتَجَيْتُهُ أيضًا، إذا خصصتَه بمناجاتك[6]، والجَمعُ أَنْجِيَةٌ[7]، والمُرادُ بنَجيٍّ في الآية: المُحادَثَةُ السِّرّيَّةُ، فعيلٌ بِمَعْنَى مَفْعولٍ مِنَ المُناجاةِ[8].

7) ﴿وَوَهَبْنَا﴾: أَصْلُ الهبَةِ مِنَ الوهْبِ، وهو إيصالُ الشَّيْءِ إلى غَيْرِه بما يَنْفَعهُ سَواء كانَ مالاً أَوْ غَيْرَ مالٍ[9]، والهبة: الإعْطاءُ بِلاَ عِوضٍ، يُقالُ: وهَبَ لَهُ الشَّيْءَ يَهَبُهُ وهْبًا وهبَةً، أَيْ: أَعْطاهُ إيَّاه بِلا مُقابِلٍ، وتُطْلَقُ الهبَةُ على العَطيَّةِ نَفْسِها، كالقَوْلِ: هبَةٌ حَسَنَةٌ، أَيْ: عَطيَّةٌ حَسَنَةٌ[10]، والاسْتيهابُ: سُؤالُ الهبَةِ، والاتِّهابُ قَبولُها، والوهَّابُ: كَثيرُ الهباتِ[11]، والمقصودُ بالهبَةِ في الآية: إِعْطاءُ شَيْءٍ بِلا عِوضٍ، والمراد بهبَةِ أَخيه لَهُ: أَنَّ اللّه عَزَّزَهُ وأَعانَهُ به[12].

8) ﴿رَّحْمَتِنَآ﴾: (رحم) أَصْلٌ يَدُلُّ على الرِّقَّةِ والعَطْفِ والرَّأْفَةِ، يُقالُ مِنْ ذلك: رَحِمَهُ يَرْحَمُهُ، إذا رَقَّ له وتَعطَّفَ عليه[13]، والرَّحْمَةُ: اسْمٌ مَصْدَرٍ لِصِفَةِ الرَّاحِمِ، وهيَ مِنْ صِفاتِ الإِنْسانِ، فهيَ رِقَّةٌ في النَّفْسِ تَبْعَثُ على سَوْقِ الخَيْرِ لِمَنْ تَتَعَدَّى إليه[14]، وإذا وُصِفَ بها

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن سيده، المحكم: (قرب).
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (قرب).
(3) الرّاغب، المفردات: (قرب).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 128.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نجي).
(6) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (نجا).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نجا، نجي).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 128.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وهب).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (وهب).
(11) الجوهريّ، الصّحاح، وابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (وهب).
(12) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 128.
(13) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحم).
(14) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 24.

الباري فليس يُراد بها إلَّا الإحسانُ المُجَرَّد دونَ الرّقَّة، وعلى هذا رويَ أنَّ الرَّحْمَةَ مِنَ اللّه إنعامٌ وإفضالٌ، ومِنَ الآدميّين رِقَّةٌ وتَعطُّفٌ[1]، والرَّحْمَةُ أيضًا: القرآن[2]، والمَغْفِرَةُ[3]، والنُّبوّة[4]، والمُرادُ بالرَّحمة في الآية: الفَضْلُ والنِّعمَةُ؛ وإنَّما جُعِلَتْ تِلْكَ الهبَةُ مِنْ رَحْمَةِ اللّه؛ لِأَنَّ اللّه رَحِمَ موسَى إِذْ يَسَّرَ لَهُ أَخًا فصيحَ اللِّسان، وأكمله بالإنباء حَتَّى يَعْلَمَ مُرادَ موسَى مِمَّا يُبَلِّغُهُ عَنِ اللّه تَعالَى[5].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

يقولُ الحَقُّ سُبحانه: وكلَّمنا موسَى بصَوتٍ يَسمَعُه، مِن ناحيةِ جَبَلِ طورِ سَيناءَ الواقِعِ على يمينِ موسى، حينَ أَقبَلَ مِن مَدينَ مُتوجِّهًا إلى مِصرَ، وأدنَيْناه، فسَمِعَ كلامَ اللّه تعالى، وخاطَبه عن قُربٍ، بلا واسِطةٍ، وآتَيناه مِن رَحمتِنا له إجابةَ سُؤالِه، فجعَلْنا أخاه هارونَ نبيًّا مِثلَه؛ ليُعينَه[6].

تكليمُ اللّه تعالى لموسى تفضيلٌ له على غيرِه مِنَ الأنبياءِ والرُّسُلِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَنَدَيْنَٰهُ﴾:

جملة: ﴿وَنَدَيْنَٰهُ﴾ معطوفة على جملة: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ [مريم: 51][7]؛ تعديدًا لمناقب موسى عليه السلام، كأنّه قيل: أخلصناه وناديناه، فهو المُخلَصُ بالاصطفاء، والمُنادَى بالوحي، وهو مِن باب الجمع بينَ الشّيء وأثَرِه؛ لأنّ اختصاصه بنداء الوحي هو أثَرُ استخلاصِ اللّه له؛ وقد هيَّأ لذِكْرِ تلك المناقبِ قولُه تعالى في الآيةِ السَّابقةِ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ

كليم اللّه هو المُخلَص بالاصطفاء، والمنادَى بالوحي

(1) الرّاغب، المفردات: (رحم).
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/ 358، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 75.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (رحم).
(4) الشّهاب، عناية القاضي: 5/ 90، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 15/ 173.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 126.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 558، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 114، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 495.
(7) صافي، الجدول: 16/ 313.

﴿مُخۡلَصًا﴾ [مريم: 51] على القراءتيْنِ المتواترتَين في كلمة: ﴿مُخۡلَصًا﴾ [مريم: 51]؛ إذ هو بفتح اللّام وكسرها، فقد ثبَت له خبرُ الكونِ على جهة العَراقةِ والرُّسوخِ؛ فكانَ شديدَ القُرْبِ مِنَ المُنادي سبحانه، فقال: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾، ويُلاحَظُ أنَّ القرآنَ دلَّ على قوّةِ استدعاءِ الأوصافِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصًا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥١﴾ [مريم: 51]؛ للنّداء مِن جانب الطّور الأيمن ولتقريبه نجيًّا، بنظمها في آية مستقلّةٍ مقترنةً بقولِه: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾ [مريم: 51]، معَ التوافقِ في الإخبارِ عنه بصيغةِ الماضي: ﴿كَانَ مُخۡلَصًا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥١ وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ [مريم: 51 - 52]؛ وكأنَّ هذه الأوصافَ كافيةٌ في التعريفِ بعبوديةِ موسى ﷺ، وفي التَّسَبُّبِ في تعرُّضِه لرحمةِ الرّبّ تعالى.

دلالة استعمال (النّداء) دون الكلام:

في النّداء إلْفاتٌ واستنباهٌ

جملة: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾: النّداء: الكلام الدّالُّ على طَلَب الإقبال، وأصله: جَهْرُ الصّوت لإسماع البعيد، فأُطلِق على طلبِ إقبالِ أحدٍ مجازًا مُرسَلًا[1]، والمقصود به في الآية: تكليمُ اللّه لموسى ﷺ[2]، ولم يقل: (كلّمناه)؛ للدّلالة على أنّه أوّل تكليم، فاقتضى معنى الإلْفات والاستنباه الذي يحصل بالنّداء، وللدّلالة على معنى البُعد، فإنّه قبل الوحي والتّكليم كان بعيدًا عن ساحةِ المُناجاة والاستخلاص، فنوديَ لها، ويؤيّده قولُه بعده: ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ﴾، فالنّداءُ أوّلُ التّكليم ومُفتَتَحُه.

معنى ﴿مِن﴾ في الآية:

تَعظُم الجهاتُ بما اقترن بها مِنَ الحوادث الكبار

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ ابتدائيّةٌ، أي: وصَلَه النّداءُ مِن هذه الجهة، أي: ظهورُ كلامِه سبحانه، وسماعُ موسى ﷺ له، كان مِن تلك الجهة، حيثُ كان مُقبِلًا مِن هنالك[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 127.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 20.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 421.

فائدة ذكر اسم ﴿ٱلطُّورِ﴾، ومعنى (أل) فيه:

المواقع تأخذُ حكمَ الواقعِ فيها

ذُكِرَ اسمُ ﴿ٱلطُّورِ﴾ في قوله: ﴿وَنَدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾؛ تعريفًا للجانبِ وتعيينًا له، وتنصيصًا على المكان الذي وقع فيه الحَدَث تشريفًا له وتقديسًا؛ فإنّ المواقعَ تأخذُ حُكْمَ الواقعِ فيها، فلمَّا كان جبلُ الطّورِ موقعَ النّداء الإلهيّ والتكليم الرِّساليّ، كان حَريًّا بأنْ يُذْكَر ويُنَصَّ على اسمِه، فإنّ الشّيءَ أجدرُ أنْ يُسمَّى ويُذْكَر إذا اقترن بأندرِ الأحداث فيه، ولا ريبَ أنّ التّكليم بالوحي هو الحَدَثُ النَّادِر الفريدُ في هذا المكان، فيُخَصُّ بالذّكْر كلّما اقترن به، و(أل) في ﴿ٱلطُّورِ﴾ للعهد الذّهنيّ، أو الحُضوريّ.

بلاغة الوصف في قوله: ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾، ومعنى (أل) فيه:

خيرُ الجهات اليمين

وصْفُ ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ في قوله: ﴿جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾، وصْفٌ للنَّاحيةِ اليُمنى مِنَ اليمينِ لِمُستقبِلِ مَشرِقِ الشّمس؛ لأنّ جهة الشّمس هي الجهة التي يَضْبِط بها البَشَرُ النّواحي[1]، فالمُراد به يمينُ موسى عليه السلام، أي: النَّاحية التي تلي يمينَه، إذِ الجبلُ نفسُه لا ميمنةَ له ولا مَيْسَرة[2]، ولم يقل: (جانبِ اليمين)؛ مُبالغةً في تعيين الجهة، وأنّها متمكّنةٌ في اليَمينيّة، لنفي توهّم أن تكون جهةُ اليسارِ مائلةً لليمين، أو جهةُ اليمينِ مائلةً لليسار، ويجوز أنْ يكون ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ مِنَ اليُمن، أي: الجانب الميمون المُبارك، وتكون صيغةُ (أفعل) دليلًا على كمال الصّفة، وعليه صَحّ أن تكون ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ صفةً لـ﴿ٱلطُّورِ﴾ بجملته، ولـ﴿جَانِبِ﴾ كذلك[3].

سِرُّ التّقييد بـ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾:

جهة اليمين ذاتُ يُمنٍ وبركة

كان التّقييد بـ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ لأنّ الشّجرةَ التي آنسَ عندها نارًا، فأتاها فنوديَ عندها، كانت في ذلك الجانب[4]، وهي المذكورة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 128.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 421.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 20، والسّمين، الدّرّ المصون: 7/ 607.
(4) الشّوكاني، فتح القدير: 3/ 399.

في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾ [القصص: 30]، فوصْفُ الجانبِ بالأيمنِ كشْفٌ للواقعِ، وليس قيدًا مُخْرِجًا.

دلالة الواو في قوله: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ﴾:

جاءت جملة: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ﴾ معطوفةً على جملة: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾[1]؛ لتتميم نعوتِه ﷺ في الاجتباء والاصطفاء، وللإيذان بأنّ كونه مُنادًى بالكلام الإلهيّ يستلزمُ تقريبَه بمناجاته لله، ومناجاةِ الله له بسرِّ الوحيّ مِن غير واسطة[2]، هذا بيانُ الاتّصالِ العامِّ بينَ الجملتيْنِ.

التّكليم الإلهيّ يستلزم التّقريب للمُناجاة

ولو قيل: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ﴾ مِن غير واوٍ: لكان توكيدًا خفيًّا لـ ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾، ومُتَّصِلًا به اتصالًا خفيًّا أيضًا؛ لأنّ النّداءَ المَذكورَ يَلْزمُ منه التّقريبُ، ولأنّ التّقريبَ الشّديدَ في: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ يَلْزمُ منه النّداءُ المذكورُ وغيرُه، فالأصلُ والظّاهرُ غيابُ العاطفِ، وإنّما حضَر العاطفُ؛ للإشعارِ بكمالِ عظَمةِ التّقريبِ الشّديدِ؛ بجعلِه مُستقلًّا؛ إذِ الأصلُ في الواوِ أنْ تُفيدَ المُغايَرةَ؛ وذلك كلُّه كانَ؛ لأنّ ما تُنْبِئُه السّورةُ مِن معانٍ وأوصافٍ للأنبياءِ والرّسلِ وغيرِهم مِنَ الصّالحينَ مِن أهلِ الإيمانِ، إنّما هو مِن آثارِ رحمةِ الرَّبِّ المُسلَّطةِ على العبوديّةِ التي قام فيها النّبيُّ ﷺ، واتَّصَفَ بها، وكأنَّ تلك العبوديَّةَ سببٌ في التَّعرُّضِ لتلك الرّحمةِ وآثارِها، وكأنَّ تلك الأوصافَ والمعاني المقرَّرَةَ لهم مِن آثارِ تلكَ الرّحمة؛ وعلى هذا تأسَّسَتِ السّورةُ؛ إذ بُنِيَتْ على قولِه ﷻ: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾ [مريم: 2].

سِرّ ارتباط التَّقريب بالمُناجاة:

المُناجاة بريدُ القُرب

اقترن التّقريب بالمناجاة في قوله: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ على خِلافِ الظّاهر؛ لأنّ المناجاة لا تحصُل إلّا عنِ اقترابٍ شديد، لأنّها مُسارَرَةٌ

(1) صافي، الجدول: 16/ 313.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 212.

بالإخلاص - الذي هو سِرّ النّبوّة وجوهرُ العبوديّة - من موسى لربّه، ومُسارَرَةٌ بالوحي - بلا واسطة - مِنَ الله لموسَى، والمُسارَرَةُ لا تكون إلَّا بقُربٍ زائد، وللدّلالة على شِدّة القُربِ وزيادته وبُعْدِه في الرُّتبةِ والدّرجة ضَعّفَ الفِعلَ فقال: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ﴾، وللدّلالة على التّعديَة، كأنّه قيل: (أقْرَبَه إليه)، ولكنّ ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ﴾ أبلغ، وهذا يُؤنَس بما ذُكِرَ في التّعليلِ لذِكرِ التّنجيةِ على خِلافِ الظاهر، وصيغة ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ﴾ تدلّ على نزول الرّتْبة وضَعْفِ الحال قبلَ النّبوّة، فأَصْعَدَه اللّهُ في مراقي التّكليم ومعارج الوحي إلى رحابه ومعيّته، فكأنّ موسى ﷺ قبلَ ذلك كان بعيدًا جِدًّا في طريق الله، فاقتضى ذلك عملًا كثيرًا في فِعل القُرب؛ ليقتربَ بالنّبوّة والاجتباء، فعُبّر عن ذلك بصيغة التّضعيف، ومبنى ذلك على تصوّر البَوْن الشّاسع بينَ النّبوّة وحالِ الإنسان العاديّ، فبينَ الحالَين بُعدٌ عظيم، فيقتضي تقريبًا كثيرًا وعظيمًا، وهذا لا يعني اتصافَ موسى ﷺ بشيء مِنَ النّقائص، عياذًا بالله مِن ذلك، وإنّما السّياقُ الكليُّ للسّورةِ؛ لبيان عظيمِ رحمةِ الرّبِّ ذي الإحسان والإنعام، في المعاني والأوصافِ التي أثبتتها السّورةُ للأنبياء ﷺ.

سرُّ اختيار صيغة ﴿نَجِيًّا﴾:

النّجيّ مِنَ الإنجاء أو المناجاة

﴿نَجِيًّا﴾ على بناء (فعيل) الصَّالح لأن يكون مصدرًا، وهو في المصادر يدلّ على صوتٍ وسَيْر، وهو شديد المناسبة مِن جهةِ معناه مع ﴿وَنَدَيْنَٰهُ﴾ و﴿وَقَرَّبْنَٰهُ﴾، ومِن جهةِ صيغتِه الدَّالّة على الإبلاغِ في إثباتِ معناه لموسى، معَ: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ﴾ معنًى وصيغةً، وأيضًا: المُناجاة مِن موسى كانت بصوتِه كسائر العباد حالَ المُناجاة، وبسَيْرِه لمَّا قال: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ [طه: 84]، ويصحّ أن يكون مِن أوزان المبالغة في الفاعل، أو أوزان المبالغة في المفعول، وهو يدلّ على كثرة مزاولة الفِعل، حتّى صار كالطّبيعة والخِلْقة الثّابتة الصّاحبة، وهو إمَّا حالٌ مِن ضمير الفاعل في ﴿وَنَدَيْنَٰهُ﴾ ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ﴾، أي: ناجاه

اللّه بنداء الوحي، فـ﴿نَجِيًّا﴾ بمعنى: المفعول أي: مُناجَى مِنَ اللّه، أو مُنَجًّى مِنَ اللّه، مِنَ الإنجاء لا التّناجي، ويوافقه قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ [طه: 40]، أو حالٌ مِن ضمير المفعول، وهو ضمير موسى، أي: مُناجيًا لرَبّه، فـ﴿نَجِيًّا﴾ بمعنى الفاعل، أي: مُناجٍ هو لرَبّه[1]، ويَصِحّ أن يكون مِن أوزان الصّفة المُشبّهة، ويكون في السّجايا والطّبائع الملازمة للنّفوس، أو ما نُزِّل منزلتَها، على معنى أنّ التّناجي مع اللّه سبحانَه هو دأبُ الأنبياء، لا ينفكّون عنه، فهو وصفٌ ثابتٌ لهم لا يَبْرحونه[2].

بلاغةُ الاستعارة في ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾:

القُرب مِنَ الله رتبةُ المُناجين له

في قوله: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ استعارةٌ تمثيليّة تصريحيَّة، حيثُ شُبِّهَتْ حالُ موسى عليه السلام مع اللّه في القُربِ المعنويّ الرُّتْبيّ، بحال من قَرّبه الملكُ لمناجاته قُرْبَ مكانٍ واصطحاب[3].

بلاغة الإتيان بالمفعول به ضميرًا غائبًا:

القُرب مِنَ الله يزيد الرّوح صفوًا والبدنَ خِفّة

جاء بالمفعول به ضميرًا غائبًا، وهو ضمير موسى عليه السلام؛ اعتمادًا على الظَّاهر السَّابق في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾ [مريم: 51]، وتناغمًا مع حركة الضّمائر في الآية: ﴿إِنَّهُۥ﴾ [مريم: 51] ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ﴾، ولِطَيّه وإدماجه في حضرة القُرب والتّناجي صار كأنّ ذاتَه تُنوسيتْ وخَفيَتْ في مَحاضِنِ السّرّ الإلهيّ والرّعاية الخاصّة، فكان إضمارُه أنسبَ للمعنى وأوفقَ للمقام؛ فالتعبيرُ عنه بالضّميرِ - مع أنه الأصلُ والظَّاهرُ - تمكينٌ لإنباءِ جملةِ النّداءِ، وإفصاحِ جملةِ التّقريب.

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا﴾:

جملة: ﴿وَوَهَبْنَا﴾ معطوفة على ما قبلها[4] مِن أفعال الاصطفاء:

(1) السّمين، الدّر المصون: 7/ 607.
(2) صافي، الجدول: 13/ 46.
(3) إسماعيل حقيّ، روح البيان: 5/ 339.
(4) صافي، الجدول: 16/ 313.

﴿وَنَدَيْنَٰهُ﴾ ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ﴾، وهو تعديدٌ بديعٌ لِلمغايرةِ بينَ ألوان المناقب التي اجتمعتْ لموسى ﷺ، وحظيَ بتشريفها وخصوصيّتها.

مناقب الأنبياء لا تُنافَس

ومِن وجوه الاتّصالِ بينهما أيضًا: معنى الرّحمةِ؛ فهو منطوقٌ في الثَّانية، مفهومٌ في الأولى؛ فكانتِ الثَّانية المعطوفة مُمسِكةً بالمعطوفِ عليها، ومِن تمامِها.

إيثارُ لفظِ الهبة، دون غيره:

نِعمَ الأخُ حين يكون هبةً لأخيه

استعمال لفظِ الهبة في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ﴾ يدلُّ على أنّ إشراك موسى لهارون ﷺ معه، كان محضَ فضلٍ مِنَ الله، وأنّه عطاءٌ خالصٌ مِنَ الأعواض والأعراض، فليس له مُقابِلٌ، لا عن استحقاقٍ منهم، ولا عن عِوضٍ وقيمة[1]، ولا يخفى أنّ استعمال لفظ: (الهبة) فيه تعظيمٌ لشأنِ ضمّ هارون ﷺ إليه بالنّبوّة.

سرُّ إسناد الأفعال الثّلاثة إلى نون العَظَمة:

نـون العَظَمة تدلّ على عظمة الفعل والفاعل

أُسنِدَت الأفعال: ﴿وَنَدَيْنَٰهُ﴾، ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ﴾، ﴿وَوَهَبْنَا﴾ إلى صيغةِ العظمة؛ لتمحُّضِها هنا لذي الجلال والإكرام؛ لأنّ كلًّا مِنَ النّداء المذكور والتّقريب والهبة مِن شأنه تعالى، مِمَّا لا يقومُ به غيرُه؛ لتعلّقها بالحوادث النَّادرة العظيمة، التي لا تحصل إلَّا لأفذاذ النَّاس وصفوتهم، فالاختصاص بها أمرٌ عظيم لا يتأتّى إلَّا لعظيمٍ قادر، ففي الإسناد تعظيمٌ للفاعل، وتعظيمٌ للفِعل.

دلالة اللَّام في قوله: ﴿لَهُۥ﴾:

يـتـولّى اللـه أصفياءَه بالنّعم

اللَّام في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ﴾ لامُ الاختصاص والأجْل، أي: وهبنا لأجْلِه - لإنْفاعِه وانتخابه، ولذا لم يقل: (وهبناه) للتّنبيه على خصوصِ الهبة بالنسبةِ له، إذْ كانت عن طلبٍ منه وسؤالٍ فأوتيَها، وأمَّا ﴿وَنَدَيْنَٰهُ﴾ و﴿وَقَرَّبْنَٰهُ﴾ فكان مِنَ الله ابتداءً لا عن طلب،

(1) السّمين، عمدة الحفَّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وهب).

فضلًا عن أنّ النّداء والتّقريب - هنا - لا يصحّ تعدّيهما باللّام، والتفرقةُ بينَ المقامَيْنِ تُظْهِرُ حصولَ التّقريبِ في الثّاني؛ إذ لو لم يُرِدْ تعالى تقريبَه لَما آتاهُ سُؤْلَه.

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن رَّحْمَتِنَآ﴾:

المواهب أثرٌ من آثار رحمة الله

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ﴾ بيانيّةٌ مُفسِّرةٌ لفعلِ الهبة، أي: ما مصدره؟ أو ابتدائيّة، أي: واصِلَةٌ مِن رحمتِنا، أو سببيّة، على معنى: أنّ المَواهبَ تحصُل بسبب المَراحِم، أو تبعيضيّة[1]، على معنى: أنّ الموهبةَ المذكورة جزءٌ مِن أجزاء رحمة الله عمومًا، وبعضٌ مِن رحمة الله بموسى خصوصًا، وفيه إشارةٌ إلى أنّ رحمةَ الله بموسى ﷺ كانت عظيمةً كثيرة.

بلاغة تقديم شِبْهَي الجملة:

تأنُّسُ النّفس بتخصيصها بالمواهب

لم يقل في السياق الكريم: (ووهبنا من رحمتنا له)، أو (ووهبنا أخاه هارون له من رحمتنا)؛ ليدلَّ على أنّه مقصودٌ أصالةً مِنَ الموهبة الإلَهيّة، بغضِّ النّظر عن مُتعلَّقها، فهو موهوبٌ ابتداءً وانتهاءً، فالمقصود تناولُ ذاتِه بأصل الموهبة قبلَ فرعها، وتقديم شِبْهي الجملة للاختصاص والحصر، أي: وهبنا له خصوصًا - لا لغيره - من رحمتنا - خاصّة - أخاه هارون، وفي التّقديم تشويقٌ إلى الهبة بالأُخوة ثُمّ بالنّبوّة؛ رمزًا إلى عظيم الامتنان والرّحمة بهما؛ لأنّ العَظَمةَ فيهما ظاهرة؛ بقرينة إسناد الهبة إلى صيغة العظمة في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا﴾.

سِرّ التّعبير بالاسم الظّاهر ﴿هَٰرُونَ﴾ بعد ﴿أَخَاهُ﴾:

الأخ الصّالح ظهيرٌ لأخيه

صَرّحَ بالاسم الظّاهر ﴿هَٰرُونَ﴾ في قوله: ﴿أَخَاهُ هَٰرُونَ﴾، ولم يكتف بـ﴿أَخَاهُ﴾، بأن يقال: (ووهبنا له من رحمتنا أخاه نبيًّا)؛ للامتنان على هارونَ ﷺ بذِكْر اسمه تشريفًا له بالنّبوّة، وللإبلاغ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 422.

في تعيين شخصه؛ لئلَّا يُتوهَّم غيرُه، وهذا مِن تبرُّجِ الدّلالة القرآنيّة على أعلى مستوياتها؛ ولأنّ موسى ﷺ لمَّا سأل معيّةَ هارون، كان ذلك بغرض إيناسِه واعتضادِه به، والمُعاضِدُ ظاهرٌ معنًى، فكذلك لفظًا، فلا يُذكَر موسى إلَّا وهارونُ مذكورٌ ظاهرٌ معه لفظًا، وظَهيرٌ له معنًى.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النّداء والخطاب:

النّداء خطاب مخصوص

النّداء أخصّ مِنَ الخطاب، وفَردٌ مِن أفراده؛ لأنّ الخطابَ هو مُراجعة الكلام وتداوُله بينَ طرفين، وأصلُه مِنَ الخَطْب، وهو الأمرُ والشّأن أيًّا كان مضمونُه، فالخِطابُ هو إنشاء الحديث في شأنٍ أو أمرٍ ما، بأيّ صيغةٍ أو بأيّ أسلوب، وأمَّا النّداء فيُطلَقُ على الأسلوب الخاصّ باستدعاء طَلَبِ الإقبال واستنباه الآخَر بصيغة النّداء، فهو خطابٌ خاصٌّ في أسلوبه وقصدِه[1].

الجانب والنَّاحية والجهة:

يُلمَح في الجانب الجارحةُ، وفي النَّاحية القصدُ، وفي الجهة الانكشافُ

الجانب والنَّاحية والجهة ألفاظٌ متقاربة، تدلُّ على جانب الشّيء، وهو الجُزء المتّصل به، والقِطعة منه، لكن بينها تبايُنٌ باعتبار المدلول الأصليّ لكلّ لفظ.

فالجانب: هو النَّاحية التي تلي جنبَ الإنسان، فأصلُ الجانب مأخوذٌ مِنَ الجارحة، ثُمّ استُعير منها للنَّاحية التي تليها، كعادتهم في استعارة سائر الجوارح لذلك، نحو: اليمين والشّمال[2]، وهذا اللّفظ هو المصوِّرُ حقيقةَ المكانِ الذي كان فيه النّداءُ، وتمثَّلَ لموسى الكلامُ منه.

والنَّاحية: مِنَ التّنحّي، وهو الميل مِن قصدٍ إلى قصد، فتُقال

(1) ابن منظور، لسان العرب: (خطب، ندي).
(2) الرَّاغب، المفردات: (جنب).

النَّاحيةُ لكلّ جانبٍ مال عنِ المَركزِ والمَقرّ، وأصله: الجانبُ المائلُ عن قَصْد الطّريق، أي: وسَطِه ومَركزِه[1].

والجِهَةُ: هي الجانب الواضح الظَّاهر مِنَ الشّيء، مِن قولهم: أجْهى الطّريق، إذا وضَحَ وظَهر، ولذا استعملها القرآنُ في المقصود الظَّاهر، فقال: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: 148][2].

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، اللّسان: (نحا).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جهو)، وابن منظور، اللّسان: (جها).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والثلاثون،
سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 31 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-73-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 31 : المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-73-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9736546 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»